آراء وأصداء

كاتب ياسين ومسرحيته الجديدة

« ذات مساء من سنة ١٩٥٥ قرأت من الدفة الى الدفة مسرحية (الجثة المطوقة) الصادرة في مجلة (اسبري) ، وكان مؤلفها جزائرياً يدعى كاتب ياسين . وفي صباح اليوم التالي ذهبت اطرق باب غرفته الحقيرة في شارع الريفولي ، فظن ان الطارق من رجال الشرطة ... »

ولم يكن الطارق من رجال الشرطة ، بل كان مخرج بيكيت وبريخت الشهير ، جان ماري سيرو : لقد قيل عنه انه مخرج الطليعة ، والواقع انه جواب حقيقة .

« ان صداقتنا الحالية ترقى الى ثلاث عشرة سنة وهي لم تزدد الا وثوقاً مع الزمن ، فلقد طالما عملنا وكافحنا معاً ، وبفضله تحسست مشكلة الجزائر ووعيتها . ولا اريد القول اننا صديقان لانه عربي وانا فرنسي ، بل الاصوب القول اننا كذلك لانه مؤلف مسرحي وانا شاعر . »

ولد كاتب ياسين في السادس والعشرين من شهر آب (اغسطس) ١٩٢٩ ، من عائلة عريقة في شؤون القلم . وكان في السادسة عشرة من عمره عندما اوقف للمرة الاولى وسجن عدة شهور بنتيجة مظاهرات ٨ ايار (مايو) ١٩٤٥ . وفي السنة التالية كان ينشر باكورة نتاجه الشعري بعنوان « نجوى » ، ثم يسافر الى باريس للمرة الاولى ويقضي فيها تسعة اشهر . اما مقامه الثاني في هذه العاصمة فصادف سنة ١٩٤٨ ، ايام نشرت مجلة « ميركور ده فرانس » قصيدته الطويلة « نجمة » .

وفي سنة ١٩٤٩ ، كان محررا في جريدة « الجيه ريبوبليكان » ، وفي هذه السنة سافر الى السعودية والسودان وآسيا الوسطى السوفياتية وكتب عنها مقالات ونظم فيها قصائد . وتلا ذلك موت ابيه وانقطاعه عن الكتابة في الصحف ، وعمل حمالا في مرفأ الجزائر ، ثم كانت بطالته الطويلة ، وعودته الى فرنسا في سنة ١٩٥١ حيث عمل مزارعا وعاملا ومساعد بناء كهربائي .

غير انه استطاع بين ١٩٥٢ و ١٩٥٤ ان يتفرغ لانهاء مؤلفين كان قد شرع فيهما منذ امد طويل ، وكان عليه ان يتمهما ، وهما رواية «نجمة» ومأساة « الجثة المطوقة ». وفي هذه الحقبة تم اللقاء بينه وبين جان ماري سيرو ، وبعد ذلك بثلاث سنوات اي في سنة ١٩٥٨ كانت «الجثة المطوقة» تمثل لاول مرة ، في مدينة بروكسل ، ثم مثلت في باريس . وفي بروكسل لاقت نجاحاً منقطع النظير ، واما في باريس فان الصحفيين القليلين الذين شاهدوها تأرجحوا بين الضيق والحماس والدهشة .

وماذا كانت تقول هذه « الجثة المطوقة » ؟ كانت تقول :

منذ مائة سنة ونحن نجرد من السلاح
وما بقي لنا منه لا يكاد يكفي للاصطياد...
كل سنة في كل موجة عميقة
ترى اطيافنا المطعونة بلا جدوى
تغوص غوصا مماثلا في الصخور
وتضيع ضياعا جديداً
يبعث في النفوس اسى طويلا.
غير انه من النادر ان تسمع نحيب ارواحنا

لان الزمن نمسكه جريحاً بين اسناننا
كمفكرين شباب
مدفونين في الهياكل .
لان من خارج شواهد القبور
تأتينا آلام خطيرة
تعكر علينا الموت في ينابيعه .

تروي «الجثة المطوقة» قصة الجزائر عبر العصور والرجال ، عبر هذه الفترة المجمدة التي تدعى الحاضر المتشح برداء الدم وسوء التفاهم . والواقع ان حركة المأساة الداخلية تلتقي دائما لدى كاتب ياسين بحركة الملحمة الخارجية وتؤلفان شيئاً واحداً يعطي ما يكتب هذا المؤلف شكله ويضفي عليه روحه . روح وشكل لا يتطوران زمنيا ولكنهما يتداخلان في خطوط حلزونية ودائرية مختلفة الاتساع . فالحاضر والماضي وحتى التنبؤ بالمستقبل ذات علاقة بذاكرة هي في الوقت نفسه ثابتة وثائرة .

وقد بدا للمؤلف وللمخرج انه ينبغي التمهيد لهذه الملحمة المعاصرة بملحمة تاريخية مؤلفة من بعض الصور التي تمثل الهجوم التركي ثم المسيحي . وبدا لهما ايضاً انه ينبغي تفسير اعمال بعض الارهابيين من اجناس البشر المختلفة دون تبريرها . على كل حال ، يقول اشخاص هذه المسرحية ، ليس بامكاننا اختيار الوسائل : لا نريد لفت النظر الى جثثنا بل الى جروح من لا يزالون على قيد الحياة .

وتفقد هذه المأساة ، التي طرأ عليها هذا التحوير والتعديل ، اسمها الاول ، وتصبح مسرحية بثلاثة فصول وبعنوان « المرأة المتوحشة » التي يجري الآن تمثيلها في باريس .

وهذه « المرأة المتوحشة » هي بكل تأكيد نجمة الماثلة ابداً في آثار كاتب ياسين . في شعره وقصصه ومسرحه هي دائمة الحضور ، بطيئة الزوال ، تسلم دائماً ولكنها لا تباع ، خلاقة ، عاشقة ، محافظة ، شاهدة ، مناضلة ، رمز شعب ، رمز ارض ، وهي في الوقت ذاته ديتر وبرسيفونه .

هذه هي عظمة كاتب ياسين وعبقريته : اعطاء اشخاصه ومسرحه رحابة الشعر وحقيقته من جهة ، ومن جهة ثانية اقحام واقع حسي في شعره يجد فيه معناه ويكسبه مذاقاً بسيطاً وعادياً . لا ريب ان هذا يدخل في عبقرية الروح العربية التي نتلمسها هنا ، وكأن ذلك حدث بيد سحرية نابضة في اطار من اللغة الفرنسية .

يقول سيرو : «اني لم افهم ان حب الوطن يتضمن ايضاً ان يحب الآخرون اوطانهم ، الا بعد ان تعرفت الى هذا المؤلف . ويبدو لي ان المؤلفين من طراز كاتب ياسين يعملون على احلال التفاهم بين الناس مكان المشكلات التي تفرقهم . ان كاتب ياسين يعمل على ثورة عالمية ليست بعيدة عن حرفي كمخرج » .

وأسأله : بعد بيكيت وبريخت ويونسكو ، الم يطرح اخراج كاتب ياسين على المسرح مشاكل خاصة ؟

« من المؤكد انه ليست هناك مشكلة حقيقية في اخراج كاتب ياسين على المسرح ، لانه في كل مرة يعبر شاعر عن افكاره بواسطة هذا الفن ، فانه يجعل من المحتم اعادة النظر في مفهوم المسرح . فالشاعر هو الذي يستعمل كلمات جديدة ويجلب على المسرح لغة جديدة ، وكاتب ياسين في هذا الحقل اكتشاف جديد بكل معنى الكلمة ، لانه يكتب باللغة الفرنسية ، وينقل الى هذه اللغة تلك الروح العربية التي حلم الفرنسيون بمسخها بواسطة اللغة » .

... واصادف « نجمة » ، اي ادوين موالي ، بوجهها الشبيه بوجه كاهنة رومانية وبشيتها الهادئة . ولدت في الجزائر سنة ١٩٢٩ وغادرتها وهي في العشرين من عمرها ، وهي تعمل منذ ثماني سنوات ممثلة في فرقة سيرو .

قالت : « لقد صادفت كاتب ياسين في احـــد الايام عند بعض الاصدقاء فاخبرني ان سيرو يعتزم قراءة (الجثة المطوقة) في نادي رابطةالطلاب المسلمين. وعرض علي دور (نجمة)، فقبلت. ومنذ ذلك الحين وانا امثل هذا الدور. لقد استطعت النفاذ ليس فقط الى قلب المرأة التي اقوم بدورها بل الى لب المسرحية كلها، وتراني افهم كاتب ياسين اكثر فاكثر. ومنذ تقديمنا هذه المسرحية لاول مرة في بروكسل ما فتىء تمثيلنا لها يصفو شيئافشيئا مغتذيا بما جرى في الجزائر وبفعل الزمن.»

وماذا تقول الممثلة عن المسرحية ؟ انها تحبها بدون لف او دوران :

«اعتبر ان مأساة كاتب ياسين العربية حسنة في اللغة الفرنسية، لانها شديدة الامتلاء ، لا ترى فيها جملة نافلة، بل كل ما فيهاينبـع من ينابيع نقية. وبينا يحاول سيرو ايجاد حقيقة الصور نجتهد نحن في ابرازها ... اني احلم بتمثيل هذه المسرحية في الجزائر، احلم بنظارة يربون على نظارة العاب السيرك ... انها مأساة تزيد روعة لدى تمثيلها.»

لقد لاءمت « المرأة الهمجية » شخصية ادوين موالي : فهي بوجهها الصارم على دمائة خلقهـــا وحركاتها الهادئة كأنها تنحدر مباشرة من الاجيال الوثنية الخالية.

منذ شهرين عاد كاتب ياسين مجددا الى باريس واشتغل كثيرا مع جان ماري سيرو وحضر جميع البروفات. وقد وجدناه هذا المساء بعد ان اغلق المسرح ابوابه محاطا ببعض الاصدقاء في احدالمقاهي المجاورة، يقول بين المزح والجد وهو يربت على ظهر صديق له :

«لا! لا ! كلما ازدادت شهرتي اصبحت بسيطا. ارجوك ان تتأكد من ذلك. كلما ازدادت ..»

واخذ يعاقر الخمرة على شرف المرأة الهمجية.

« اجل - من جهة انا مسرور من تمثيـــل مسرحيتي تمثيلا جيدا ، ومن جهة ثانية ، لست مسرورا . . »

لماذا ؟ لا احد يعرف ذلك ابدا. وجلس برهة ولكن بدا عليه جليا انه لن يطيل المكوث، وانه يشرح وجهة نظره لانه لا بد من الجواب على ما يسأل عنه.

«ان كل معتقد ديني او فلسفي ينتهي دائما بمعاقبة الشاعر الذي يحمل لواءه. فاذا لم يستطع ان يعبر عن افكاره تماما فانه ينفلق. هذه وظيفته. انه يقوم بثورة داخل الثورة السياسية. فهو وسط المعمعة المشاغب الازلي. لان مأساته هي في انه يُقحم في خدمةصراع ثوري،هو الذي لا يستطيـع ان ينسجم مع مظاهر الساعة. الشاعر هو الثورة في حالتها الطبيعية، هو حركة الحيـــاة المتفجرة باستمرار.»

ويقف ويتوجه نحو البار، ويفرغ كأس بيرة فيجوفه،وهو يقول بين حركتي تنفس دون ان ينظر الى احـــد :

«فيا مضى كنت احب امرأة في الجزائر - ولكنها مضت مع فرنسي . كانت تدعى .... ولكن لا دخل لاحد بذلك، اعطني بيرة ثانية يا ولد ! »

في الخارج، الشتاء الباريسي القاسي، واسم نجمة المنفرش تحت الثلج.

لوك نوران